النراقي في «جامع السعادات»:

إفاضة الأنوار على المصلي على قدر صفائه

بين المقاربات التخصصية للصلاة، فرائد تأسيسية. وهذه الفريدة هي من بدائع تلك المقاربات. وقد وردت في كتاب «جامع السعادات» للعالم الرباني الشيخ محمد مهدي النراقي (ت ١٢٠٩هـ). وهو من كبار علماء الأخلاق الذين أوصى الإمام الخميني قدس سره بقراءة كتبهم وأعمالهم.

إعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات، وإخلاصها لوجه الله، وأداءها بالشروط الباطنة المذكورة، من الحضور والخشوع، والتعظيم والهيبة والحياء: سببٌ لحصول أنوار في القلب، تكون تلك الأنوار مفاتيح للعلوم الباطنة، وإنما يفيض منه على كلّ مصلٍّ على قدر صفائه من كدورات الدنيا، ويختلف ذلك بالقلّة والكثرة، والقوة والضعف، والجلاء والخفاء.

ويختلف أيضاً بما ينكشف من العلوم، فينكشف لبعضهم من صفات الله وجلاله، ولبعضهم من عجائب أفعاله، ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة، ولبعضهم غير ذلك.

وأولى بالظهور والإضافة لكلّ شخص، ما يهمه ويكون في طلبه. وإلى ما ذكرناه من ترتّب الإفاضات العلوية على الصلاة الخالصة لوجه الله المؤدّاة بالشروط المذكورة، أشار النبيّ ﷺ: «إنّ العبد إذا قام في الصلاة، رفع الله الحجاب بينه وبين عبده، و واجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدنْ منكبيه إلى الهواء، يصلّون بصلاته ويؤمّنون على دعائه، وإنّ المصلي ليُنشر عليه البرّ من أعنان السماء إلى مفرق رأسه، وينادیه مناد: لو علم المصلّي مَن يناجي ما التفت. وإنّ أبواب السماء تُفتح للمصلين، وإنّ الله يباهي ملائكته بصدق المُصلّي».

فإنّ رفع الحجاب وفتحَ أبواب السماء كنايةٌ عن إفاضة العلوم الباطنة عليه.

وورد في التوراة: «يا ابن آدم، لا تعجز أن تقوم بين يديّ مصلياً باكياً، فأنا الله الذي اقتربتُ من قلبك، وبالغيب رأيتَ نوري». وورد: «أنّ العبد إذا صلّى ركعتين، عجبت منه عشرة صفوف من الملائكة، كلّ صف منهم عشرة آلاف، وباهى الله به مائة ألف».

وذلك لأنّ العبد جمع في الصلاة بين القيام والقعود، والرّكوع والسجود، والذكر باللسان، وغير ذلك.

> وليس لملك من الملائكة هذا القسم من العبادة الجامعة بين الكل، بل هذه الأفعال موزعة عليهم، فبعضهم قائمون لا يركعون إلى يوم القيامة، وبعضهم ساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة، وهكذا الرّاكعون والقاعدون.

فإنّ ما أُعطي الملائكة من القرب والرتبة لازم لهم، مستمرٌ على حالة واحدة، لا تزيد ولا تنقص، وليس لهم مرتبة التّرقي من درجة إلى أخرى، وباب المزيد مسدود عليهم، ولذلك قالوا: ﴿وَمَا مِنّا إِلّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ الصافات: ١٦٤، بخلاف الإنسان، فإنّ له التّرقي في الدرجات، والتّقلب في أطوار الكمالات.

ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلاة، قال الله سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المؤمنون: ١ ﴿الّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ المؤمنون: ٢، فمدحهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة، وهي المقرونة بالخشوع، ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضاً، فقال في آخرها: ﴿وَالّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ المؤمنون: ٩. ثم قال في ثمرة تلك الصفات: ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ المؤمنون: ١٠ ﴿الّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ المؤمنون: ١١. فوصفهم بالفلاح أولاً، وبوارثة الفردوس آخراً.

فالمصلّون هم ورثة الفردوس، و ورثة الفردوس هم المشاهدون لنور الله بقربه ودنوّه بالقلب.

وكلّ عاقل يعلم أنّ مجرّد حركة اللسان والجوارح مع غفلة القلب، لا تنتهي درجته إلى هذا الحد.